الإنسان ذلك العالم الكبير

* محمد الدسوقي شتا

ملخّص

أساس التربية الصوفية يقوم على تشكيل الشخصية وتنميتها وصقلها وتقويتها على أسس سليمة، قائمة على جعل هذا الإنسان الغارق في الطين، المخلوق من الحمأ المسنون، إنسانًا أعلى كاملا جديرًا بالنفخة الإلهية التي نفخت في آدم، وورثها هو وأصبح مسؤولاً عنها.. كل التربية الصوفية والأخلاق الصوفية تجعل جلّ همّها محو آثار هذا الطين وتجلية الروح (النفخة الإلهية)، ورد الإنسان إلى أصله <مخلوقًا إلهيًا>، لا هو بالمتدني، ولا بالوضيع، ولا بالجبان، ولا بالهلوع، ولا جاعلا الطين منتهى همّه ومبلغ علمه. هذا الاهتمام المتزايد بتربية <الطين> وجمع <القمامة> يعني تحويل هذا العالم الذي نعيش فيه إلى غابة بكل ما في الغابة من مساوئ، بل وأسوأ، لأن التكاثر هنا والتطاحن موجّه بعقل جزئي لا يرى أبعد من مواطئ القدم، فلا يكون هناك سوى <الجسد> ومطالبه، فإذا شبع انطلق إلى الشذوذ في الفكر والمسلك، وجرّ المجتمع من بعده إلى حمأة من الرذيلة لا نهاية لها.

---

* - أستاذ جامعي مصري.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يعتبر الإنسان بمعناه <الأشمل الأعم> ثم بما اصطلح على تسميته <بالإنسان الكامل> القاسم المشترك الأعظم في كل أعمال المتصوفة المسلمين، فهو في تساميه وضعفه، وعلوّه وسقوطه، وانصرافه إلى الملأ الأعلى وانصرافه عنه، وطُهره ودَنَسه، الميدان الرحب الواسع الذي تدور حوله التجربة الصوفية...

الواقع أن هذا الحضور الدائم لله في الإنسان هو الذي يعطى الجدلية الصوفية في بعض الأحيان بُعد الغرابة، والذي أوقعها في تناقضات عديدة مع كثير من المشارب والنحل الإسلامية الأخرى، وجعلها تجربة شديدة الخصوصية بمصطلحاتها ومادتها.

ولعلنا نغفل كثيرًا من جوانب الفكر الصوفي إذا قلنا أن هذا الفكر ينشغل فحسب بهذه العلاقة بين الإنسان والله، أو المخلوق والخالق، بشكل انتزاعي، وأنه لا يأبه بحياة الإنسان في جحيم الأرض ويشغله بقضية فوق طاقته تستنزف منه الجهد والطاقة وتصرفه عن تنمية نفسه وبلده وتلقى به في أمور غريبة لا تفضي إلى نتيجة ولا تؤدي إلى ثمرة، والذي ينظر هذه النظرة إنما ينظر إلى الفكر الصوفي أو بمعنى أصح على التصوف في عصور ضعفه وانحطاطه <وقد أصابه ما أصاب الإسلام ككل من سوء فهم وانحدار فكري وتحميل لفهم الآخرين أو لتفهيم الآخرين لنا أصولنا الثقافية>.

ليس ميدان الفكر الصوفي كما يقال هو الغيبيات، فإن المخلوق الذي فيه نفخة من الإله، وكان مقره الجنة، ثم نزل إلى الأرض (منفاه وغربته)، لابد وأن يعمل من أجل أن يكون جديرًا بالعودة إلى أصله.. ومن ثم فالفكر الصوفي ـ وبخاصة في تجليه عند جلال الدين ـ هو فكر سيادة الإنسان الذي لابد وأن يرتفع عن التناقض الشديد الذي يعذبه ويبسط ظلالاً من الحيرة والصراع عليه طوال حياته، ذلك التناقض الذي عبر عنه مجدالدين سنائي بقوله:

ماذا أفعل بالروح وأنا من الطين

وماذا أفعل بالجسد وأنا من عليين[1]. وعبّر عنه حافظ الشيرازي بقوله:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا أدري من يوجد بداخلي أنا المعذب
فأنا صامت وهو في صراخ وعويل[٢].

بل وعبّر عنه قبلهما الصوفي العظيم أبو سعد بن أبي الخير (المتوفى سنة ٤٤٠هـ) بقوله: <أحيانا أكون كالملاك ملازمًا للعبودية وأحيانًا كالحيوان أحيا على الطعام والنوم وأحيانا كالوحوش أمزِّق.. سبحانه الله ما هذا التفرق وهذه الحيرة> وعبر عنه الصوفي العظيم نجم الدين كبرى (المتوفى شهيدًا في غزوة المغول ٦١٨) بقوله: <في داخلي شيطان، لا يخفى عليَّ.. وقطع رأسه ليس أمرًا سهلاً.. لقنته الإيمان ألف مرة. ولم يدخل في الإسلام>. هذه الحيرة التي يعبر عنها مولانا جلال الدين الرومي أجمل تعبير وأروعه وخاصة في ديوانه الأكبر <ديوان شمس الدين التبريزي>...

في هذا الجهاد الأكبر (جهاد النفس) يرى المفكر الصوفي أو المرشد الصوفي أو الجامع بينهما مثل مولانا جلال الدين أن مسئوليته الأولى تجاه البشر أن يأخذ بأيديهم في هذه المعركة، ويوصلهم إلى بر الأمان، ففي مثل هذه المعركة التي تجري داخل الدم، ولا تهدأ، ولا هدنة فيها، يقف العدو (النفس ـ الشيطان ـ الهوى ـ الهوس ـ مغريات الدنيا بالمرصاد، ومن ثم لابد للمقاتل من مرشد ومن أستاذ، التدقيق على لزوم المرشد يتردد كثيرًا في كل أجزاء المثنوى[٣] وهذه سمة مهمة جدًا من سمات عرفان مولانا جلال الدين: **إنه مضاد تمامًا لتصوف الزهد والانسحاب**. إنه إن شئنا الدقة: **تصوف الصراع والمواجهة والقتال**، ومن هنا تشيع روح <الحنو> على البشر والنظر بعين الإشفاق بل وأحيانا الفهم إلى ألوان ضعفهم .. فهي لازمة جدًا في المعركة.. فلا معنى لعفة بلا إغراء.. ولا معنى لأي ارتفاع عن مغريات الدنيا إلا إذا كانت هذه المغريات موجودة بالفعل.. **عرفان مولانا جلال الدين إذن عرفان ينزل إلى خضم الحياة.. ينازلها ويصارعها ويقف أمامها وجها لوجه:**

ـ وعندما لا يكون عدو فالجهاد محال، وإن لم تكن شهوة لا يكون هناك امتثال.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ ولا يكون صبر عندما لا يكون لديك ميل، وعندما لا يوجد خصم فما الحاجة إلى قيامك بالاحتيال.

ـ انتبه ولا تجعل نفسك خصيًا.. ولا تصر راهبًا، ذلك أن العفة رهينة بوجود الشهوة.

ـ ولا يمكن النهي عن الهوى إن لم يوجد هوى، ولا يمكن القيام بالغزو ضد الموتى.

ـ لقد قال <أنفقوا> إذن فاكسبوا أولا.. ذلك أنه لا نفقه دون أن يسبقها دخل.

ـ وكذلك عندما قال اصبروا، ينبغي أن تكون هناك رغبة حتى تشيح عنها بالوجه(٤).

ليس صراع الإنسان إذن في مقابل الأهواء، وسعيه الحثيث نحو العودة إلى أصله قائمٌ على تجاهل هذه الرغبات والأهواء، أو نفيها، بل على مقاومتها مقاومة شديدة، فالهروب هنا ليس يجدي، وكيف يفر الإنسان من نفسه التي بين جنبيه، ومن شيطان يجري منه مجرى الدم، يقول مولانا:

فلأهرب.. ما دام فيّ عِرقٌ ينبض.

ومتى يكون الهرب من الذات أمرًا يسيرًا.

فلا هو آمن في «الهند» ولا آمن في «خُتَنَ».

ذلك الذي يكون خصمه نفسه التي بين جنبيه(٥).

الهدف إذن من كل التجربة الصوفية عند مولانا هو <سيادة الإنسان>، أن يكون بالفعل سيدًا على الأكوان كما خُلِقَ في الأصل.. ليس الإنسان إذن كما يقول الخيام: ذرة تراب توحّدت بالأرض.. أو قطرة ماء امتزجت بالمحيط.. ومجيؤه إلى العالم مجيء ذبابة.. ظهرت ثم اختفت.. لا .. **الإنسان كما عبر عنه مولانا جلال الدين؟! عليه أولا أن يعرف أصله وخلقه فهذه المعرفة هي السلامة الأولى في معركته نحو التسامي إلى الأعلى.**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أ- يقول الحكماء إن الإنسان هو العالم الصغير، وأن العالم هو الإنسان الكبير.. لكن مولانا جلال الدين جاء وعكس الآية، ذلك أنه لا يمكن أن يوجد هناك في الخليقة ما هو أعظم من الإنسان:

ـ إذن فأنت في الصورة العالم الأصغر، وأنت في المعنى العالم الأكبر.

ـ وفي الظاهر يكون ذلك الغصن أصلا للثمرة، لكن الفرع في الحقيقة أصل الثمرة.

ـ فإن لم يكن الميل إلى الثمر والأمل فيه، متى كان البستاني يغرس جذور الشجر؟

ـ ومن ثم فإن ذلك الشجر على سبيل المعنى ولد من الثمر، وإن كان الثمر قد ولد منه على سبيل الصورة(٦).

الإنسان إذن هو: أول الفكر وآخر العمل، هو المقصود من خلقة الكون.. الحذر أيها المؤمنون فإن هذا العرق (أي عرق الفلسفة والغرور) كامن فيكم كما أن بكم عوالم كثيرة لا تحد(٧).

نعم: في تلك البضعة من العظام التي يسعها متر من الأرض عوالم وبحار وقارات.. يعايش المرء نفسه سنوات طويلة دون أن يستطيع مواجهتها.. ويومًا بعد يوم.. قد تدفعه الحياة أو الحب أو البغض إلى اكتشاف تلك النفس ذات الطبقات (أو ذات السبعين طبقة بتعبير لمولانا) أو بتعبير آخر:

أصمت وانظر إلى أعماق البحار لقد جعل الحق البحر مسخرًا للإنسان. فكل ما في الكون على عظمته مسخَّر للإنسان ﴿وسخَّر لكم ما في الأرض جميعًا﴾..

نعم يستطيع الإنسان كلما تعمق في أمر ما أن يجعل لنفسه عوالم جديدة من هذا الموضوع.. **ليس تسخير العالم بمعناه المادي هنا بل تسخير العالم معناه أنه يخلق عوالم متشابهة داخل ذاته وداخل وعيه**(٨). وبالعودة إلى قصة بهلول في الكتاب الثالث (أبيات ١٨٨٦-١٨٨٨):

ـ قال بهلول لأحد الدراويش.. كيف أنت أيها الدرويش، اجعلني واقفًا على أحوالك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ فأجاب: كيف يكون من تسير الدنيا وأمورها دومًا وفق هواه؟

ـ تتدفق السيول والأنهار وفق مراده، وتصير الكواكب على النسق الذي يريدها أن تكون عليه.

ـ والحياة والموت حراس له، يسيران وفق مراده حيًا بحي.

ب – وليست هذه العظمة موجودة في الإنسان في حد ذاته، بل لأنه خليفة الله في الأرض، إنه ممثل للوجود الإلهي على الأرض:

إن الدنيا هي نفس ذلك الشخص والباقون كلهم أتباع وطفيليون أيها الأخ[٩].

ويتكرر عند مولانا تعبير يا ابن الخليفة (انظر على سبيل المثال لا الحصر الكتاب الثالث من المثنوي: ابن العظيم الأبيات ٣٦٥٢ وما بعدها):

ـ ويا أبناء الخليفة اعدلوا، واحزموا أمركم من أجل اليوم الموعود.

ـ وجروا ذلك العدو الذي انتقم من أبيكم نحو السجن من عليين.

ـ إن ذلك الحسود اختطف من أمّنا وأبينا التاج والزينة بسرعة وحَذَق (الكتاب الثالث ، ص ٢٣١)

نعم جُرعة الحسن الإلهي هي التي جعلت من الإنسان ذلك الخليفة:

ـ لقد سكبت جرعة من هذا الكأس خفية على أرض التراب من كأس الكرام.

ـ وعلى الوجه والجدائل دليل من جرعته، والملوك يلعقون التراب من جرائها.

ـ إن جرعة الحسن في هذا التراب الجميل، هي التي تقبلها أنت ليل نهار بمائة قلب.

ـ والجرعة الممتزجة بالتراب إن كانت تصنع أمثال المجنون، ماذا تفعل بك إن كانت صافية (دون تراب)؟!

ـ وكل امرئ ممزق الثياب (وجدًا أو ولهًا) أمام قطعة من المدر، فإن هذا المدر تجرّع جرعة من الحسن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ فجرعة على القمر والشمس والحمل، وجرعة على العرش والكرسي وزحل.

ـ أتسميها جرعة ويا للعجب أو كيمياء؟! فمن تأثيرها يوجد العديد من البهاء. (الكتاب الخامس الأبيات ٣٧٢ ـ ٣٧٩).

الإنسان إذن هو الجزء من الكل.. وكل جزء طالب لكله، لا يتم كماله إلا به والفراق عنه هو الموت، وهو الذل، لا يغرنك أنه يتحرك.. فحتى العضو المقطوع يتحرك حركة بسيطة ولفترة قليلة ثم لا يلبث أن يهمد:

ـ ذلك لأن الانتقال من العزّ إلى الذل، كأنه قطع عضو من البدن.

ـ والعضو الذي يقطع من البدن يموت، إنه يتحرك قليلا بعد بتره لكن ليس لفترة طويلة.

ـ وكل من شرب من كأس <أَلَسْتُ> في العام الفائت، فإنه يحس هذا العام بالألم والخمار.

ـ وذلك الذي يكون في الأصل منسوبًا إلى الحظيرة، متى يكون لديه الحرص على السلطة (الكتاب الخامس: الأبيات ٨٢٧ ـ ٨٣١).

لقد عزلت من العرش، وليست معرفتك بأنك عزلت عن العرش هي الدافع للفخار بما مضى، بل عُدْ أولا إلى العرش ثم تفاخر آنذاك.

ج - كل ما هو موجود في العالم موجود في الإنسان، وليس كل ما هو موجود في الإنسان موجود في العالم، والفكرة لشمس الدين التبريزي:

<لا أقول لك صر إلها.. أنا لا أنطق كفرًا.. كل العناصر الموجودة في النباتات والحيوانات والجمادات ولطافة جوّ الفلك، فهي موجودة داخل الإنسان، وكل ما هو داخل الإنسان، لا يوجد فيها.. إن هذه هي حقيقة العالم الأكبر... فما أعجبه من إنسان ذلك الذي يساوي الأقاليم السبعة وكل الوجود> (عن صاحب الزماني، خط سوم،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ص٤٩٢) والتفصيل موجود عند ناصر خسرو القبادياني (المتوفى ٤٨١)...

وبالطبع فإن ما يميّز الإنسان هو هذه الروح الإلهية التي يعبّر عنها بتعبيرات عديدة: فهي الروح، وهي السرّ، وهي القلب <الذي هو بين إصبعين من أصابع الرحمن>، وهو موضع سر الله، وموضع نظره، وموضع حلوله.. وحركة الكون جبر، وحركة الإنسان اختيار (عن الجبر والاختيار انظر مقدمة الكتاب الخامس)، والإنسان هو المكلف بالأمانة.. كل هذه رؤوس موضوعات استفاض فيها مفكرو الصوفية، وتناولها مولانا جلال الدين في أكثر من موضع من موسوعتيه: المثنوي المعنوي والديوان الكبير أو ديوان شمس الدين التبريزي، وكل قيمة الإنسان الحقيقية في هذه الروح:

ـ ما أكثر تلك القنوات المختفية المتصلة هكذا بأرواحكم أيها الغافلون.

ـ ويا من استمددت من السموات والأرضين المواد حتى صار جسدك سمينًا.

ـ سرقت جسدك من أجزاء العالم.. وأخذته درجة درجة من هذا وذاك.

ـ فهل تطمئن أن ما أخذته بالمجان. لن يسترده منك هذا وذاك؟

ـ أن المتاع المسروق لا ثبات له، لكنه يأتي باللص إلى المشنقة.

ـ انها عارية فقلل تمسكك بها، فإن كل ما أخذته ينبغي عليك أن تؤديه.

ـ اللهم إلا تلك النفخة التي جاءت من الوهاب، فكن روحًا فكل ما عداها عبث لا طائل من ورائه[١٠].

الإنسان إذن ليس بجسده ولا بصورته، ويقدم المثنوي نماذج مضحكة عن الادعاء، وعن آفات الاغترار بالمظهر، وعن المرشدين الكاذبين ومحترفي الادعاء، وأروع ما تتجلى سخريته العميقة عند تناول هذا النماذج، ويركز دائمًا على أن وراء الظاهر باطنًا ينبغي أن يُطلب، وحقيقة ينبغي أن يتحرى عنها المرء:

ـ فالإنسان في صورته فرع من فروع هذا الكون، لكن فاعلم أنه بصفته أصل هذه الدنيا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ إن ظاهره تؤدي به بعوضة إلى الدوار حوله نفسه، لكن باطنه محيط بالعوالم السبعة (الكتاب الرابع / أبيات ٣٧٦٦ - ٣٧٦٧).

د - كل ما يحيق بالإنسان إذن من هذا التنزل، من جهله بقيمته وبذاته وبنفسه, إنّ من يترك النفخة الإلهية لا يبقى له سوى الطين، ومن يترك الماء العذب لا يجد أمامه سوى الماء المالح، إنه مجرد كلب يجري خلف جيفة الدنيا ولا يشبع منها، فإن كفّ عنها فترة لا يجد أمامه إلا مهاجمة خلق الله وإيذاءهم، يستطيع الإنسان أن يختار لنفسه وأن يجد الجماعة التي ينتمي إليها ويكون جديرًا بها:

ـ وكل نبات يلزمه حوض <خاص في هذا البستان> كان هذا النبات فومًا أو قبار.

ـ وكل واحد مع جنسه في حوضه الخاص به، يشرب الطلّ، من أجل أن ينمو وينضج.

ـ فإن كنت في حوض الزعفران فكن زعفران ولا تختلط بالآخرين.

ـ واشرب الماء أيها الزعفران حتى تنضج، وتبلغ مرحلة أن تكون زعفران بذلك الجمال.

ـ ولا تمدنّ فمك في حوض اللفت، حتى لا يصير هو شريكًا لك في الطبع والمذهب.

ـ لقد وضعت في حوض، ووُضع هو في حوض آخر، وذلك لأن <أرض الله واسعة>.

ـ في ذلك البحر والصحراء والجبال، تتقطع الأوهام وينقطع الخيال.

ـ والماء الساكن الذي تكون حركته من الداخل، أكثر عذوبة ونضارة من المياه الجارية(١١)

الزم إذن نفسك وتتبّعها فيما تنزع إليه، وانظر إلى نفسك من تكون: أأنت موسى أو فرعون؟! فموسى وفرعون في داخلك وهذه كلها نقد لحالك أنت.

وإن كان مولانا يتحدث عن موسى وفرعون فإنما يتحدث عن الناس أنفسهم الموجودين في كل قرن:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لقد صار ذكر موسى قيداً على الخواطر، فكم من قائل: ما لنا نحن وهذه الحكايات القديمة؟

ـ إن ذكر موسى هنا مجرد دريئة وحجاب، لكن ليكن لك منه نور موسى أيها الرجل الطيب.

ـ إن موسى وفرعون في وجودك، وينبغي أن تبحث عن هذين الخصمين في داخلك.

ـ وهناك نتاج من موسى حتى القيامة، وليس نوراً آخر وإن تغير السراج.

ـ فهذه المشكاة وهذه الفتيلة من نوع آخر، لكن نورها لم يتغير لأنه من تلك الناحية.

ـ وإذا نظرت في الزجاجة فإنك تضل، ففي الزجاجة توجد التعددية وتوجد الإثنينية.

ـ وإذا نظرت إلى النور تنجو من الإثنينية وتعددية الجسد المتناهي المحدود[١٢].

إن الإنسان يستطيع أن يحدد موقفه بحس <الرؤية>، ليست الرؤية التي يتميز بها كل مخلوق حي، لكنها الرؤية الخاصة بالإنسان، وليست رؤية هذه القطعة من الشحم، لكنها رؤية تلك العين الموجودة في القلب، وإلا فإن النملة التي تركز بصرها على الحبة إنما تصرف هذا النظر عن البيدر كله:

ـ إن النملة تكون مرتعدة <شوقًا> إلى الحبة، بحيث تعمى عن البيادر العظيمة.

ـ إنها تجر هذه الحبة بحرص وخوف، بحيث لا ترى ذلك البيدر الكريم العطاء.

ـ ويقول صاحب البيدر: هيا يا مَنْ عماك صيرّ الأشياء معدومة.

ـ إن مبلغ رؤيتك من بيادرنا، هو تلك الحبة التي تعلّقتَ فيها بروحك.

ـ ويا من أنت كالذرة في صورتك، انظر إلى عطارد، إنك نملة عرجاء، فاذهب وانظر إلى سليمان (٦/٨١١ – ٨١٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي موضع آخر يقول مولانا جلال الدين:

ـ إنك مجرد هذا الفكر.. وما تبقى منك عظام وعروق.

هذه الرؤية، وهذا الفكر (المتصل بالأصل) وبالبحر الكلي، والعلم الذي هو ينجي الإنسان من كل أنواع الفرقة، والخيال والوهم، يجعله مجموعًا متمركزًا، وليس موزعًا على مائة هوى، محققًا لذاته ولوجوده، جديراً حقًا بكونه إنسانا، عارفًا بطريقه، ثابتًا راسخًا متمكنًا، ولا يكون مثل القشة التي تتقاذفها كل ريح.

وهكذا ففي كل أعمال الصوفية نلتقي بهذا التناقض البيّن الواضح للعيان بشأن الإنسان: فالإنسان هو كل شيء وهو لا شيء.

١ـ هناك من أمثال الحلاج وأبي يزيد، شطحوا عن الحديث عن هويتهم في مقابل الإله، وكانوا أكثر جرأة من الآخرين، أحيانا جرى على لسان كل منهما ما يدل على ضعفه اللانهائي وانعدام قيمته تمامًا أمام الخالق: لا حركة ولا فكر ولا إرادة، نعم من منطلق النفس يكون الإنسان لا شيء، أما من منطلق الروح فهو العالم الأكبر، وهكذا يبدو الأمر عند مولانا جلال الدين تمامًا(١٣).

٢- جوهر الإنسان إذن إلهي على الدوام، وتحقيق جزء قليل من هذا الوجود الإلهي على الأرض، يحمل الإنسان إلى آفاق عظمى، وكان هذا منطلق الصوفية إلى بلورة مفاهيم الإنسان الكامل بالمعنى الأعم، والإنسان الكامل المتمثل في خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وسلم)، ثم الولاية بمعناها العام وبمعناها الخاص.

أـ والإنسان الكامل هو قمة تجلّي الشخصية الإنسانية وقيامها بذاتها واستغنائها عمن سواها، وهو ما عبّر عنه مولانا جلال الدين بفكرة الجدول الذين ينبع من الداخل، ثم ثناها بصفاء هذا الجدول بحيث تنعكس فيه صور كل الأشياء، هنالك تكون الكرامة الحقيقية(١٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعلى كل حال نستطيع أن نجد عند كل الصوفية أصحاب المؤلفات إلماعات إلى هذه الموضوعات، فقد كان الغرض الحقيقي من التصوف والعرفان كما ذكرت آنفًا هو تربية الإنسان المثالي: الإنسان الأعلى بالتعبير المعاصر، وإن لم تتبلور بشكل مستقل في صورة نظرية للتربية أو نضج الشخصية الإنسانية.. بل في الأغلب الأعم ينظر إليها من وجهة النظر القائلة بأن الإنسان ليس مُنبتّ الصلة بشكل كامل عن الله سبحانه وتعالى، وعند شمس الدين التبريزي ومن بعده جلال الدين الرومي تتخذ هذه الفكرة جانبًا عمليًا وتعليميًا. وكلاهما لم يستخدم مصطلح الإنسان الكامل بل استخدما مصطلحات من قبيل: الكمّل، العظماء، الخواص، ولهذا دلالة على أن الإنسان الكامل في هذا المفهوم لم يكن شخصًا واحداً، بل من الممكن على من يتعرض للكيمياء الإلهية أو كيمياء التبديل (المرشد) أن يتحول من نحاس إلى ذهب. كما كانت صنعة الكيمياء القديمة تهدف إلى تحويل النحاس إلى ذهب.

وصورة الإنسان الكامل عند شمس الدين التبريزي ذات أبعاد تبلغ أربعة عشر بعداً استقاها ناصر الدين صاحب الزماني من كتابه الصغير العميق، المقالات (انظر: صاحب الزماني، خط سوم ٥٨٤ـ ٦٢٦) وهي تمثل أيضًا في فكر جلال الدين الرومي تأثيراً لا بأس به وهي: الفكر (أو عند مولانا جلال الدين التدبر في العاقبة والنظر إلى نهاية الأمور قبل بدايتها) والمثنوي حافل بالأمثلة والحكايات الكثيرة حول هذا الموضوع. ثم الرؤية والنظر والبصيرة، وعند مولانا جلال الدين يتكرر كثيراً مثال الأعمى الذي ينبغي عليه أن يستعين بأحد يقوده، فإن لم يوجد فعصا فإن لم يوجد فليسر بحيطة وحذر شديدين..

وثمة بصيرة داخلية وبصيرة خارجية.. فالبصيرة هنا وسيلة للمعرفة في مواجهة الإدراك الحسي والتجربة والنقل والاستدلال العقلي. ويواظب مولانا دائمًا على توصية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المريد بأن يسأل الله البصيرة النافذة التي ترينا الأشياء <كما هي>.. والبصيرة في مرحلة من مراحلها المتقدمة تؤدي إلى الشهود ثم إلى انكشاف الباطن.. وهنا يمكن للفراسة أن تقوم بدورها.

أما البعد الثالث من أبعاد الشخصية المتكاملة، الوعي بالزمان بأبعاده الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل، وعدم الإفراط أو التفريط في بعد من هذه الأبعاد الثلاثة، فمن الماضي البصيرة، والتزود للحاضر، والأمل في المستقبل أو الرجاء الذي بدونه يصبح الطريق أشد وعورة وأكثر صعوبة، فإن كنت في البداية تصيح: ما أبعدك يا مكة فلن تصل إلى مكة أبدًا، أو ستظل تدور في حلقات مفرغة، مثل التضارب بين هوى المجنون وهوى ناقته.

وإن كانت الأزمنة من ماضٍ حاضر ومستقبل كلها تمتزج عند الصوفي.. فيكون ابن وقته ثم يتجاوزها ليكون <أبا وقته> أي مسيطرًا كل السيطرة على كل أحواله وإرادته، فهو ليس عبدًا لأي شيء، وليس ابنًا لأي شيء (انظر الكتاب الثالث/١٤٢٦ وما بعده).

أما البعد الرابع فهو الوعي بذاته، إنه يقيم ذاته بوعي تام، يعطيها حقها، لا تنقص ولا تقل، يعرف عيوب نفسه ومزاياها، يكون مراقبًا لها، ممسكًا بزمامها، في غاية التنبه..

ولمولانا تعبيرات في غاية الدقة والذكاء في هذا المجال، وأولئك الذين لا يعرفون ذواتهم أو يتظاهرون بأنهم أعظم مما هم عليه بالفعل، هم الذين يثيرون دائمًا عند مولانا جلال الدين الميل إلى السخرية. إنهم أشبه بابن آوى الذي يزلّ في دنّ الصباغ (انظر في الكتاب الثالث حكايات القروي والحضري وسقوط ابن آوى في دن الصباغ والرجل الذين كان يدهن شاربه ثم فرعون وموسى على مدى من ص٧٩ إلى ص٩١).

فهناك شعرة واهية جدًا لا تكاد ترى بين الوعي بالذات ومعرفة الذات وبين الغـرور،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والامتحانات الصعبة الحقيقية لا تصل بالفعل إلا بعد أن يكون الوعي بالـذات قـد بلـغ مداه، وهذا الوعي بالذات عند الإنسان الكامل ينقسم إلى وعي بالبـاطن ووعـي أيـضًا بالظاهر، فمن الأوفق للإنسان أن يكون عالـمًا بموقعه من مجتمعه وموقعه ممـن يحيطـون به، وإلا اختطفه طوفان الحياة (كنعان بن نوح وفرعون وهامان والنمرود وكـل جبـابرة الأرض لم يكن لديهم هذا الإحساس، وكانوا يظنون أنهم على الـصواب، وأنهـم أعظـم من أن يتبعوا دعـوة الأنبيـاء، وفـوق ذلـك أن النـاس يـسجدون لهـم حبًـا لا خوفًـا ولا طمعًا)..

وهناك الكثير من الشخصيات عند مولانا جلال الدين تثير الضحك لأنها كانت تظن أنفسها بالنسبة لمجتمعاتها فوق ما هي بالفعل بكثير (الوزير اليهودي والأعرابي حامل الجرة بالماء هدية إلى الخليفة في بغداد، والمشعوذ الذي سرق الحية من المشعوذ، والصوفي الذي بيع حماره، والصوفي والفقيه والعلوي اللذين كانوا يسرقون من البستان، والمخنث الضخم في الكتابين الأول والثاني والحضري الذي استحمقه القروي والذي تعلم لغة الطير، وصاحب الثور في قصة الذي كان يطلب رزقًا بلا سعي، وصياد الحيات في بغداد، والأستاذ المريض بالوهم في الكتاب الثالث، والدباغ في سوق العطارين، واللص الذي سرق عمامة تافهة، وعشرات من الشخصيات الأخرى التي تتميز بالاتزان ومعرفة موقعها بالفعل وإمكاناتها في معرض فياض بالحياة، لتصوير الشخصيات بغرض تجسيد أفكار ومعان).

وثمة نقطة مهمة ركز عليها مولانا جلال الدين بشأن بناء الشخصية الإنسانية السوية هو التخلص من الحكم المسبق والرأي المسبق، والشخصية القوية شخصية الإنسان الكامل حرة من القوالب والأطر والألوان والنمطيات التي تلتصق بشيء معين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأكثر ما تنصبّ سخرية مولانا جلال الدين على أولئك المرائين المدعين من الصوفية، وكثيرًا ما مارس السخرية من أولئك الذين، اعتمادًا على المظهر، يسارعون بإطلاق الأحكام، إن أولئك الذين يخادعون الناس بالمظهر يضلون الناس، يقومون بسقياهم الماء المالح على أساس أنه ماء عذب، والماء المالح يزيد الناس ظمأ (انظر حكايات الصوفي والفقيه والعلوي في الكتاب الثاني الأبيات ٢١٦٧ - ٢٢١١ وحكاية الصوفي الذي اشتاق إلى الجهاد دون أن يكون مستعدًا له في الكتاب الخامس الأبيات ٣٧٣٩ ـ ٣٧٦٩ وقصة الصوفي والقاضي في الكتاب السادس) وعشرات من الأمثلة يصادفها القارئ تبين سخرية مولانا جلال الدين من المظهر الخلاب الذي يخفي باطنا شديد الخواء، ومن ثم فإن خصلة النفاق من الخصال التي تناولها مولانا بالسخرية الشديدة.

الهوامش:

١- سنائي، ديوان، ص ٣٨٥.

٢- جامع نسخ حافظ ، غ ٨٢، ص ٦٣ .

٣- انظر: الأبيات ١٧٧٤ - ١٧٧٧ من الكتاب الثالث .

٤- مثنوي، الكتاب الخامس، الأبيات: ٥٧٥ - ٥٨١ .

٥- عن صاحب الزماني ٤١٦ .

٦- الكتاب الرابع أبيات ٥٢١ - ٥٢٤ .

٧- كفافي ٣٢٨٧/١ .

٨- جعفري ـ تفسير ونقد وتحليل مثنوي ، ج ٢، ص ٦٦٤ طبعه ١١ شتاء ١٣٦٦هـ .ش .

٩- من دفتر ١ نسخة جعفري ج ٣٥٥/٢ وليست موجودة في نسخة كفافي .

١٠- الكتاب السادس: الأبيات ٣٥٩١ وما بعدها وهناك أبيات زائدة من نسخة جعفري ٣٤٦/١٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١١- الكتاب الرابع من مثنوي جلال الدين الأبيات ١٠٨٣ - ١٠٩٢ .

١٢- مثنوي مولانا جلال الدين الأبيات ١٢٥٢ - ١٢٥٨.

١٣- خليفة عبد الحكيم: عرفان مولوي ١٢٢ ـ ١٢٣ .

١٤- من نافلة القول أن نذكر أن فكرة الإنسان، الكامل أو الإنسان الإلهي موجودة في التصوف الإسلامي منذ الحلاج وأبي اليزيد، ولقد استخدم أبو اليزيد مصطلح <التكامل التمام> للتعبير عن الإنسان الذي بلغ حد تكامل الشخصية، ولعل ابن عربي (المتوفى ٦٣٨هـ) هو أول من استخدم مصطلح الإنسان الكامل للتعبير عن كمال النضج الإنساني في الفصل الأول من كتابه <فصوص الحكم>، ويبدو أن عزيز الدين النسفي المتوفى سنة ٧٠٠ هـ هو صاحب أول مؤلف في الإسلام يحمل عنوان الإنسان الكامل، وبعد النسفي الف عبد الكريم الجيلاني (المتوفى سنة ٨١١) كتابه المشهور باللغة العربية الإنسان الكامل. (عن خط سوم صاحب الزماني ٥٧٦ – ٥٧٨) وعند سنائي الغزنوي المتوفى سنة ٤٣٥ توجد الماعات إلى شخصية الإنسان المتوازن الإلهي، بل أن تناوله للرسول صلى الله عليه وسلم يوحي بأنه كان يعتبره الإنسان الكامل وهي فكرة عزيت فيما بعد إلى صوفية متأخرين جدا: انظر رسالة: حديقة الحقيقة وشريعة الطريقة القسم الأول، ص ١٤٣ وما بعدها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com